البشارة بالمسيح

ولا زالت مريم تتعرف على كرامات الله لها ولطفه ورحمته بها حتى كلمتها الملائكة يومًا فأخبرتها باصطفاء الله تعالى وولايته لها.

قال جلَّ ثناؤه وتعالى ذكره: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾.

[آل عمران: 42-43]

وفي إنجيل [لوقا 1: 28] «فدخل إليها الملاك وقال: «سلام لك أيتها المنعم عليها الرب معك مباركة أنت من النساء».

وفي أحد الأيام أراد الله جلَّ وعلا أن يوطأ نفس مريم للمهمة التي ستواجهها والبلاء الذي سيمر بها.

فبشرتها الملائكة بقولٍ صريح أنها ستحمل بالمسيح، قال تعالى في الذكر الأعظم: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ

بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: 45] فتعجبت مريم أيما تعجب، وتحيرت غاية التحير، كيف يكون لي ولد من غير والد وأنا لا زوج لي ولم يقربني رجل؟!

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: 147]، وفي إنجيل [لوقا 1: 34] «فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلًا. قال الملاك لها: لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله.

أي أن الله على كل شيءٍ قدير، غلب أمره، ونفذت مشيئته، وعمت قدرته، إذ أنه يخلقه بكلمة منه فيقول له: كن فيكون».

قال ابن كثير: «فخضعت مريم لأمر الله واستكانت وعلمت أن هذا فيه بلاءٌ عظيم لأن الناس سوف يتكلمون فيها بسببه

ويتهمونها في حمله»، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر، إنما ينظرون لظاهر الحال من غير تعقل ولا امتهال[1].

ذكر ميلاد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

وظلت مريم مُداومة على عبادة الله جلَّ وعلا لا تخرج من المسجد إلا في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لا بد منها، من استسقاء ماء أو تحصيل غذاء.

فبينما هي يومًا قد خرجت لبعض شأنها وانتبذت مكانًا شرقيًا من قومها إذ بموعود الله تعالى يأتي وقدره النافذ يتم.

أرسل الله رب العالمين إليها الروح الأمين جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 17]، أي شابًا كامل الخلق، سوي الهيئة، جميل المنظر[2].

---

(1) (ابن كثير «قصص الأنبياء» ص [565] مطبعة الأنوار المحمدية – القاهرة)

(2) يؤمن الكاثوليك أن روح القدس الذي يعبدونه تمثل لمريم رجلًا وعاشرها معاشرة جنسية ليكون المولود ابن إله حقًا.

فهابتـه مريم وخافتـه فتعوذت بالرحمن من أذى هذا الإنسـان فهـي: العفيفـة، الطاهـرة، النقيـة، الحييـة لا تخالـط الرجال ولا تقتحم مجالسهم.

﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: 18]، لأنها علمت أن التقى ذو نهية، إذا ذُكِرَّ ذكر، وإذا خُوِفَّ بالله خاف وانتهى.

قيل: فلما سـمع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ذِكر الرحمن عاد فرقًا وخوفًا إلى صورتـه الحقيقيـة وقال لهـا: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم: 19]، فعلمـت أنـه موعـد تحقيق البشـارة فسـلمت الأمـر لله جلَّ وعـلا راضية مختارة، فنفـخ جبريل في كم درعهـا أو جيـب قميصها فصـارت النفخة في بدنهـا فحملت من فورها كما تحمل المرأة من بعلها ليكون عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ آية للناس على قـدرة بارئهم وعظمـة خالقهم ومصورهم، فإنـه تعالى خلق

آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى، فتمت القسمة الرباعية الدالة على القدرة الإلهية في خلق هذه البشرية.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: 59].

وأيتها أعظم ...؟!

أن يخلق الله بكلمته إنسانًا من تراب بلا أب ولا أم حيث صفة التراب تخالف صفة الإنسان ظاهرًا.

فالإنسان لحم ودم وعقل ومشاعر وحركة... إلخ.

والتراب جمادٌ ساكن مبعثر الذرات.

obeikandl.com

أهذا أعظم في الخلق أم إيجاد إنسان من إنسان آخر يماثله ولكن على غير الطريقة التي اعتادها البشر حيث أنه من أم بلا أب.

ولهذا كان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ آية للناس عامة ولبني إسرائيل خاصة على قدرة الله جلَّ وعلا[1].

قال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: 21].

قال ابن كثير: «ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلًا على كمال قدرتنا على أنواع الخلق»، وفي [أشعياء عدد [14] إصحاح [7]]: «ولكن يعطيكم السيد لنفسه آية، ها العذراء تحبل وتلد ولدًا وتدعوا اسمه عمانوئيل».

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: 22]، أي: مكانًا بعيدًا نائيًا مستترًا، لأنها بدأت تتفطن إلى الريبة التي سوف

(1) فخلق آدم وخلق حواء أعظم صورة من خلق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

obeikandl.com

تغامر قلوب الناس إذا رأوا معالم الحمل تظهر على عذراء لا زوج لها.

وغلب على مريم الحزن والأسى من هذا السرّ الرهيب الذي أغلق عليه في أحشائها، ومرت الأيام والشهور وحان الوقت لميلاد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال تعالى: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ [مريم: 23]، أي: ألجئها طلق النفاس، واضطرها ألم الوضع إلى جذع نخلة يابس لا حياة فيه بأرض قفر جدباء لا زرع فيها ولا ماء، فقالت وهي تعاني الآلام البدنية، وتعالج الهموم النفسية: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾.

وفي هذه اللحظات الحاسمة، وهذا الكرب الشديد نزلت رحمات الله وانهمرت بركاته جلَّ في علاه، لأن بعد الضيق فرجًا،

obeikandl.com

ومع العُسر يُسرًا، والله تعالى لا يترك أولياءه هملًا بل يحفظهم برعايته ويغشاهم بعنايته.

فهاهي الآيات تتبدى، والمعجزات تظهر لتثبت مريم في محنتها وتربط على قلبها، فالجذع اليابس يصير بإذن الله نخلة شامخة تُثمر تمرًا طيبًا، ورطبًا جنيًا، وإذ بالربوة الجدباء والأرض القفراء يجري الله على مشارفها نهرًا عذبًا طاهرًا سريًا.

وتأتي المعجزة الكبرى والآية العظمى، فبينما مريم على هذا الحال إذا بصوتٍ يناديها وشخص من تحتها يكلمها ويلاغيها فنظرت فإذا الجنين يتكلم، والصغير يتحدث كي تقر عينها وتطمئن ولا تحزن[1].

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى

(1) قصص الأنبياء.

وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: 24-26].

وكان الصيام في شرعيتهم عن الكلام كالصيام عن الطعام.

فأمرها به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لأن هو الذي يتكلم عنها ويدافع لتظهر برائتها وتتضح حالتها.

فلما رأت مريم الآيات والمعجزات أخذت جنينها ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾ بين ذراعيها وتضمه إلى صدرها بيديها، فلما رآها قومها ﴿ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ أي شيئًا عظيمًا رهيبًا كبيرًا ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ أي يا من تشابهين هارون العابد في الزهد والعبادة[1].

(1) قيل: إنه كان له أخٌ اسمه هارون زاهد عابد، وقيل: إنهم قالوا لها هكذا لأنها من سبط (قبيلة) هارون. وهذا حق.

obeikandl.com

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ ما كان أبوك من أهل الفحشاء ولا أمك ترتكب البغاء بل أنت من أسرة طيبة طاهرة[1].

فاتهموها بالفحشاء والفعلة الشنعاء.

قال ابن كثير: «فلما ضاق الحال، وانحصر المجال، وامتنع المقال، عظم التوكل على ذي الجلال، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال[2].

﴿فَأَشَارَتۡ﴾ أي خاطبوه وكلموه فإن جوابكم عليه، وما تبغون من الكلام لديه، فعندها ﴿قَالُواْ﴾ من كان منهم جبارًا شقيًا ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ أي كيف تحيلنا في الجواب إلى صبي صغير لا يعقل الخطاب وهو مع ذلك رضيع

(1) ابن كثير «قصص الأنبياء».
(2) ابن كثير «قصص الأنبياء».

obeikandi.com

في مهـده لا يفرق بين محـض وزبده، وما هذا منكِ إلا على سـبيل التهكـم بنا والاسـتهزاء والنقص لنـا والازدراء إذ لا تردين علينا قولًا نطقيًا بل تحيلنا في الجواب على من كان في المهد صبيًا.

فيا ترى بأي شيءٍ نطق عيسى في مهدِهِ؟! وماذا قال إذ خاطب وهو جنين قومه؟

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ فـكان أول مـا نطق به الاعتراف لله تعالى بالعبودية.

وإنـه لا فـرق بينـه وبـين سـائر البشريـة، ولا يُفضـل عليهـم إلا بالنبـوة والرسـالة؛ إذ أعطـاه الله الإنجيـل وجعلـه نبيًـا لبنـي إسرائيل[1].

[يوحنـا 17 : 30] «وهذه هي الحياة الأبديـة أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته».

(1) يوحنا (20 : 17) قال المسيح: «أبي وأبيكم إلهي وإلهكم» يفسر لهم معني أبي أنها تعني إلهي، ويقدم نفسه عليهم في العبودية لله تعالى.

[يوحنا 4: 34] «قال لهم يسوع طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله».

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ هذه هي حقيقة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، في التوراة والإنجيل والقرآن ليس كما قالت الأمة الغضبية أنه ابن زانية، لأنه رسولٌ كريم، ولا كما زعمت الطائفة النصرانية أنه ولدٌ لله تعالى - تعالى الله عن ذلك-.

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ على الفور والحال من غير تأخير ولا امتهال كما أراد ودبر الكبير المتعال.

وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خلق بكلمة الله كن فكان، وعلى الهيئة التي أراد الله جلَّ وعلا، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله**

ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وأن الجنة حق، والنار حق أدخله الجنة من أي أبوابها شاء»[1].

وفي رواية: «**أدخله الجنة على ما كان من العمل**»، فالله جلَّ وعلا إذا قضى أن يخلق شيئًا فبكلمة كن ونسب عيسى إليها لأنه خلق بها من غير تناسل، وأضيفت إلى الله تعالى تشريفًا وتكريمًا كما هو واضح فيما جاء في [المزمور [23] عدد [6]] «بكلمة الرب صُنِعت السموات وبنسمة فيه كل جنودها»[2].

[عدد [9] مزمور [23]] «لأنه قال فكان هو أمر فصار».

وفي [لوقا إصحاح [1] عدد (1-2)] «إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخدامًا للكلمة».

[يوحنا 8: 40] «وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله».

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت.
(2) كتاب «سيدنا عيسى بشر رسول».

obeikandl.com